شعر الجزيرة العربية في قرنين ١١٥٠ - ١٣٥٠ هـ

(نجد والحجاز والاحساء والقطيف)

د. عبدالله الحامد

بين الانتماء لعصر الانحطاط والانتماء لعهد النهضة

- ١ -

هل كان الشعر في الجزيرة خلال هذين القرنين امتدادا لشعر عصور الانحطاط ، أم امتدادا للنهضة الأدبية ؟ ..

سيكون جواب كثير من الباحثين دون « شك » أنه امتداد لعصور الانحطاط ، الا أننا سنترك النصوص تتحدث عن نفسها .

فما هو شعر الانحطاط أو شعر القرون الوسطى لنستطيع الموازنة بينه وبين هذا العصر في السمات المتفقة والمختلفة . ان العصور الوسطى تنقسم الى فترتين :

١ ــ العصر المغولي أو المماليكي ويبتدىء بسقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) (١) وفي هذا العصر ضعف الأدب ، وسقطت الفصاحة ، وعاش الأدباء أسارى الصور والمعاني والأساليب الموروثة .

٢ ــ العصر العثماني ويمتد من ظهور الدولة العثمانية ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وينتهي بحملة نابليون الى مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) .

واذا كان الأدب في العصر المماليكي ضعيفا فانه في العصر العثماني أشد ضعفا ، لأن عاصمة العثمانيين غير عربية ، ولأنهم جعلوا التركية لغة الحكومة ، ولم يكن لهم من الأدب مايجعلهم مقصد الأدباء بخلاف العصر المماليكي (٢) ولذلك نجد انحطاطا أعمق في العصر العثماني ، فالموسوعات والمجاميع وحركة التاليف التي شهر بها العصر المملوكي تحولت في العصر العثماني الى شروح وحواش للشروح والمختصرات (٣) ·

ومن شعراء العصر المماليكي التلعفري والشاب الظريف ، والتلمساني ، وابن نباتة ، وابن حجة الحموي ، وشهاب الدين الحجازي ، وصفي الدين الحلي ، وابن عرب شاه · وغيرهم من الشعراء الذين نجدهم يتناقصون في العصر العثماني ، يقل عددهم ، ويضمر شعرهم ·

ومن شعراء العصر العثماني عائشة الباعونية ومامية الرومي ، وعبد الرحمن الحميدي ، وشهاب الدين النابلسي ، وشمس الدين الصالحي ، ودرويش الأرتقي ، وعبد الله الشبراوي ، ومحمد سعيد السمان ، وابن سلامة الأدكاوي ، وفتح الله النحاس (٤) ·

ويمكن أن نجمل الظواهر التي شاعت في العهد المماليكي ، ثم عمت في العصر العثماني كما يلي :

ظهور المدائح النبوية ، والاكثار منها سواء المدائح العادية ، أم المدائح التي تتضمن أسماء فنون البديع ، ويسمونها «البديعات» ·

وكثرة الشعر الاخواني ، وما يتصل به من مباسطة ومطارحة ، في التهاني والتعازي ، والعبث ·

وكثرة معارضة شعراء هذا العصر لشعراء العصور الماضية خاصة القصائد المشهورة ، وما يتصل بها كالاجازة والمجاراة وتحول القصيدة الى معجم ثقافي يحاول فيه الشاعر أن يبرز ثقافته وعلمه بالتاريخ ، والأيام ، والأنساب فيضمن الأمثال والحكم ، ويقتبس من القرآن والحديث ويضمن أيضا الشعر ·

وشيوع شرح الشعر بالشعر كما أسميه مما يسمونه التخميس والتشطير ·

وقد ظل الشعر مشدودا الى الأدب القديم لا يخرج عنه الى روح العصر قيد أنملة ، في صوره وأفكاره وتعبيراته ·

وغلبت على أفكاره السطحية والضحالة وأصبحت الأخيلة قريبة تقليدية ، لا ابتكار فيها ولا تجديد ، لضيق آفاق التفكير ، وضحالة الثقافة ·

وشرق الشعر بالتعلق بصناعة البديع والزخارف اللفظية والمعنوية ، حتى أصبحت هذه الصناعة هدفا يقصد بذاته ، ولو لم تؤد معنى ·

وشيوع الفحش والمجون والعبث الذي كان في العصر العباسي مقصورا على شعراء محدودين ، وان كان في آخره قد ازداد ، لكنه في هذا العصر جمع بين الفحش والبذاءة التي زاد من حدتها فراغ الشعراء ، وابتعادهم عن مواقف الجد ·

وشيوع الأوزان العامية ، كالزجل ، والمواليا ، والموشحات ، والمربعات ، والمخمسات ، مواكبة زحف الأدب العامي على الفصيح بعد أن فقد الشعر الفصيح جمهور مستمعيه ·

وازداد امتطاء صهوات الشعر للأغراض العلمية كنظم المتون ، والفتاوي وتقييد المسائل ، وحوادث التاريخ ، والمعميات والأحاجي ·

- ٢ -

وحين نعرض لانعكاس هذه الظواهر في شعر القرنين ، نجد شدا وجذبا ، وجزرا ومدا بين رياح ثلاثة تأثر بها الشعر : عصور الانحطاط ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والنهضة الحديثة في الشام ومصر ·

وحري بالاشارة أن ظواهر الانحطاط كانت أكثر وضوحا في سائر الأقاليم ، وان خفت وخفتت في الشعر في ظلال الدعوة الاصلاحية ·

فقد وجدت المعارضة لأشعار القرون السابقة واضحة فنرى ابن عثيمين يعارض بائية أبي تمام والحداد وعبد الله بن عبد القادر يعارضان تائية ابن الفارض ، وعبد الله بن عبد القادر يعارض أبيات طرفة بن العبد حول الثلاث اللواتي هن من لذة الفتى ، وكما في مجاراة أحمد بن مهدي لقصائد ابن أبي الحديد ، التي عارض بها ابن أبي الحديد معلقات الجاهلية ·

وفي التضمين أيضا نجد عبد الله بن عبد القادر يضمن بيتا للمعري حول تجريب الدهر وأهليه ، وعبد الحق العثماني يضمن بيت :

·· لا يدرك الشوق الا من يكابده ··

وابن عثيمين يستدل على جواز ورود الغزل في الشعر مضمنا بيتا لحسان بن ثابت ۰

وصورة أخرى من صور التضمين نجدها في ما يسمى التشطير والتخميس ، كما في تخميس عبد الله بن عبد القادر لأبيات عزة العمري ، وكما في تخميس عبد الحق العثماني في الغزل ، وكما في تخميس منصور الجشي لتائية دعبل الخزاعي ۰ ونجد هذه العاهة تصبح معقدة حين يأخذ الشاعر يشطر ويخمس شعره كما فعل عبد الله بن عمير ۰

وتحول القصيدة الى سجل للأمثال والشوارد وتضمينها ، أو الاقتباس منها نجده عند الأسكوبي في رائيته التي هي أبرز شعره يقول فيها (٥) ۰

اتامنون لموتورين ديدنهم   ان لا يروا منكم فوق الثرى حرا
تمالئوا فخذوا حذرا فانهم   يرون ابقاءكم بين الورى ضرا
فما على من رأى لحما على وضم   يجتره غيره لوم اذا اجترا

★★★

اتركنون لمن دب الضراء لكم   ومد عنقا يغادى سرحكم عقرا
دون الدنية ايثار المنية في   قوم من البغض ودوا محوكم مكرا
۰۰ ان تنصروا الله ينصركم فكم فئة   قليلة غلبت اضعافها كثرا

وكذلك امتطى الشعراء والعلماء صهوات الشعر لنظم المتون ، والفتاوى وتسجيل المسائل للحفظ ، والأيام ، كما نجد في شعر ابن مشرف في التاريخ والأخلاق وكما في شعر أبي بكر الملا والعلجي ، ومحمد الحفظي وابن سحمان ، وكذلك استمرت ظاهرة التاريخ الشعري امتدادا لسيطرة العلم على الأدب ۰

ونظموا الشعر في الأحاجي والألغاز ، والنكات العلمية كما قال أحمد بن عبد القادر يسأل عن فاعل نال (٦) :

الح في العذل ولم يرعو   في عاشق يبكي الدمى [ب] سالدما
القصرف [اني] لست بالمرعوي   لو نلت ما اصغى وربى السما

ومثل ذلك يقال عن الأوزان العامية سواء منها الأوزان البغدادية كالمواليا وفنونها ، أم الموشحات الأندلسية ، أم الزجل ، وكل تلك الفنون

وجدت رواجا خاصة في الحجاز ، على يدي عبد الرحمن المكي ، ومحمد قابل الجمال .

وقد استطاع الشعراء تطوير الأوزان العامية بادخال أوزان أخرى هي أقرب الى بيئتهم من غيرها ، ليجاوبوا حاجات الذوق العامي ، ويحتفظوا بشيء من فصاحتهم نجد ذلك في الأوزان المسماة « الفرعي » و « المجرور » و « اليماني » التي امتطاها الشعراء ، وكما في شعر عبد الله العمير الذي حاول نفس المحاولة فجاء بشعر ذي قافيتين فيه شيء من الفصاحة ، بينما وزنه ونمطه أقرب الى الألحان النجدية والعراقية التي شاعت عند الشعراء العوام (٧) :

ناحت الورقاء يوما في فنن   تندب الأقران في ماضي السنين
هيجت قلبي بنوح ما سكن   ذكرتني سادة لي بعد حين
اعذروني يا رعابيب الوطن   الشم المبسم منكم والجبن

★★★

- ٣ -

أما الصنعة اللفظية ، وما فيها من توشية ونقوش وزخرفة ، فقد أصبحت سمة للشاعر المجيد ، يقتنصها اقتناصا ولو تكلف ما لا طاقة له به ، وأضاع المعنى ، ويمكن أن نقسم الصنعة الى نوعين الصنعة المعروفة في كتب البلاغة التي تمتد من الجناس والسجع والمزاوجة ، الى التورية والمقابلة والطباق ونحوها والصنعة المعقدة التي أخذت تنمو منذ أواخر العصر العباسي كقراءة البيت طردا وعكسا ، وترديد حروف معينة في كل القصيدة ، وكتابة قصيدة خالية من النقط (الاعجام) أو معجمة كلها ، وما يتصل بذلك من التطريز والتشجير ، والتدوير ، وسائر التعقيد مما أسميته « الطلاسم الأدبية » .

فالنوع الأول شاع في الحجاز والأحساء ووجدت طبقة في الأحساء أجادت استخدامه ،وأبرز من ظهر في ذلك عبد العزيز بن عبد اللطيف المبارك الذي كان يأتي به على البديه ، وعلى الروية ، سواء في شعره المرتجل ، وكذلك شعراء الأحساء بعامة ، فهل كانت الطبيعة هي التي أكثرته أم الفراغ أم مزاحمة الصنعة المعقدة له في الحجاز هي ما أخر الحجاز عن الأحساء .

أما الصنعة المعقدة والتي هي أبعد الأشياء عن الابداع فقد نمت وترعرعت في الحجاز ، وكان من شعرائها الأسكوبي ، وأبرز من ظهر فيها

عمر بري ·

وبجانب الصنعة وجد شعر المباسطات والمطارحات والمفاكهات ، مما ينشد في مجالس السمر ويتبادل بين الشعراء ، ويتناشد بين الناس فيه روح العبث ، وهو بعد ذلك كله نتاج الفراغ ·

ومن ثم كان لابد له أن يتصل بشعر المجون والسخف والفحش ، لأن هذه أغراض متواكبة يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويدعو اليها الفراغ ، والعزلة عن حياة المجتمع ، والابتعاد عن مواقف الجد ·

وقد كان الفحش ظاهرا في الشعر الحجازي كما ذكروا عن شعر الأثرم ، ولا يكاد يوجد في الأحساء ، ومن الحق أن نوضح أن شيوع شعر الفحش في الحجاز لم يكن بالدرجة القوية ، التي نجدها في الشعر العثماني الذي سبق هذا العصر ، أو عاصره في العراق والشام ومصر ، ومرد ذلك الى الحرية الشخصية ، والحياة اللاهية في تلك الأقطار التي امتزجت فيها العناصر الأجنبية بالعربية ، وضعف فيها الرقيب الديني ، واذا كان هذا الغرض في نجد معدوما ، وفي الأحساء والقطيف ضاويا فان بروزه في الحجاز يعود لارتباط هذا الاقليم بالأقطار الأخرى أكثر من غيره وكثرة الوافدين عليه للحج والتجارة والسياحة · وامتزاج العناصر العربية بالافريقية والهندية والتركية ·

وشيوع الرقة والسهولة في الشعر أثر من الفراغ ، أو من لين الطبيعة ، ورخاء العيش وقد وجدت الرقة في الشعر الحجازي والأحسائي خاصة ، وهي امتداد يقرن بظاهرة المطارحات والنكات ، والمباسطات التي تأثر فيها الشعراء بشعراء العصر العباسي والمماليكي والتركي · وخاصة شعراء الرقة كالبهاء زهير وابن مطروح ، وهي ظاهرة واضحة الارتباط بشعر عصر الانحطاط ، ولذلك نجدها تنعدم في الشعر في ظلال دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الشعر النجدي ، وبمقارنة شاعر نجدي من شعراء الدعوة كابن سحمان أو ابن عثيمين بشاعر حجازي أو احسائي كالأثرم أو عبد الله بن عبد القادر يتضح الفرق بين الأسلوبين ·

- ٤ -

وفي عمود الشعر درج الشعراء على المزاوجة بين الاحتفاظ بالمقدمة الغزلية ، والمطالع الموضوعية وهو نهج عرف منذ العصر العباسي ، وان جاءت فيه محاولات لتغيير الغزل بوصف الخمر كما فعل ابو نواس :

عاج الشقي على ربع يسائله　　　وعجت ابحث عن خمارة البلد

وقد أهمل الشعراء وصف الخمر في المطلع كما أهمله العباسيون ومن بعدهم ، لمجافاته للذوق الاسلامي الذي ازداد قوة في شعراء القرنين ·

ولكنهم حاولوا التجديد فيه بادخال وصف القهوة في مقدمة القصيدة ، وقد جاءت هذه المحاولة في شعر الأحساء كما في قول عبد اللطيف بن عبد العزيز المبارك (٨) ·

قم فاسقني البن صرفا واملأ القدحا فان زند الهنا والسعد قد قدحا

لكن هذه المحاولة لم تجد ذيوعا وشيوعا في البيئات الأخرى ، لأن الشعر في نجد كان يحاول تخطي كل المقدمة كما يتضح في شعر ابن سحمان ، ولأن الشعر في الحجاز كان غارقا في تتبع خطى العصر العثماني ، ومعاصريه في الشام ومصر ·

وتابع الشعراء سابقيهم العثمانيين ختام القصيدة بما بدئت به ، واهتموا خاصة بختم القصيدة بالصلاة على النبي المصطفى ، ولعلهم أولعوا بها ولوعا أكثر من سابقيهم خاصة شعراء الدعوة الاصلاحية كابن مشرف وابن عثيمين اللذين لا يكادان يتركانها ·

أما الهيكل الأسلوبي فقد ظل كما هو في العصر العثماني حبيس الأخيلة القديمة ، والاستعارات المحنطة ، والصور الباهتة ، يعيدون فيها ويبدئون ، ويطوفون حولها دون أن يجدوا مخرجا الى فضاء فسيح يقول ابن غنام (٩) :

او الفجر الا ما بدا من جبينها أو الورد الا ما جلاه احمرارها

أو الليل الا من معسعس شعرها أو الخمر الا ظلمها لا عقارها

مهاة تريك الشمس طلعة وجهها اذا أسفرت يجلو الظلام نهارها

★★★

والفجر والليل والخمر والشمس والورد هي نفسها الصور القديمة ، تماما مثل الدمى والقنا والنبال والأسود والمها عند الأسكوبي (١٠) ·

خود كامثال الدمى   يبرزن في حلل الجمال
فقدودهن من القنا   وجفونهن من النبال
فانها اخت المها   او انها اخت الغزال
فهناك تلعب بالأسو   د البيض ربات الحجال

★★★

اضافة الى ترديد التراكيب القديمة والأساليب المتوارثة سواء بالنقل الحرفي كما في الاقتباس والتضمين ، والتشطير والتخميس ، أو بالاستيحام في الأحضان القديمة كالمعارضة والمجاراة ، وسياق الأمثال ·

لكن هذه التبعية تخف كلما جد الشعراء في الحديث عن حرب أو فتح او نضال ويسري هذا النفس في الشعر في ظلال دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب أكثر من غيره ، يقول ابن عثيمين :

ليت الذي سكن الثرى ممن مضى   من أهل بدر والبقيع المنور
نظروا صنيعك في المدينة والتي   ياوى اليها كل أشعث أغبر
كي يشهدوا ان الفضائل قسمت   بالفصل بين مقدم ومؤخر
وليشهد الثقلان من أوليتهم   من أمنهم من بعد خوف أعسر
ظفر الحجاز من الزمان بغبطة   بعد النبي وصحبه لم تغبر

لكن الأفكار بعامة لم تتعد السطحية الى العمق ، لضيق آفاق التفكير ، وضحالة الثقافة ·

★★★

- ٥ -

واستمرت ظاهرة الأدب الصوفي امتدادا لشطحات ابن عربي ، وسرحات ابن الفارض خاصة في الحجاز وتهامة وجبل عسير لوجود الزوايا والأربطة التي ظلت تغذيها وتنميها ، حتى وجدنا بعض الشعراء كالحداد يقصر شعره على هذا اللون ، وخفتت في الأحساء ، وعدمت في نجد لأن الدعوة الاصلاحية ضد هذا المسلك ·

وكذلك ظاهرة المدائح النبوية سواء على شكل البديعات ، أم على شكل العادي ، امتدت في الحجاز وتهامة وجبل عسير ، ولكنها أقل منها في الشعر العثماني السابق أو المعاصر للقرنين · ولعل مرد ذلك الى أن المدائح النبوية يبعثهما الحنين والشوق ، الذي يولده البعاد عن مكة والمدينة · وهذا نفس السبب في ادمان الشريف الرضي على ذكر الحجاز في حجازياته ، وادمان الأبيوردي على ذكر نجد في نجدياته ، لأنه في أقصى ديار العجم ، واذا كان المثل الشعبي يقول مامعناه « أعزف الناس عن مكة هم أهل بطحائها » ، ومعناه أن شوقهم للحج ونحوه ليس كشوق الآتين من أقاصي الديار ، فانه صحيح الدلالة على قلة شعر المدائح النبوية · أن الشاعر الغزل الذي يطفىء شوقه الى المقدسات بزيارتها والطواف عليها ، والذوبان في هالاتها كلما أراد ، لا يحتاج الى لغة الشعر ، أما عدمها في الشعر في ظلال حركة الشيخ ابن عبد الوهاب فهو ناتج عن روح الجد التي أخذت على الشعراء كل مذهب ، ومعروف أن المدائح النبوية والبديعيات انما هي شعر وجد في العصور الوسطى ·

وقد يطيب للذين لا يعرفون حقيقة الدعوة الاصلاحية أن يعزوا ذلك لتقصير أهل الدعوة في حب المصطفى عليه السلام ، والحقيقة أن حنين أهل الدعوة الى الأرض المقدسة تحول الى عمل ، وحبهم للمصطفى صلى الله عليه وسلم تحول الى اقامة للفروض التي نادى بها ، لا الى طقوس وزفرات ، واذا كانوا يردعون الذين يغلون في حبه عليه السلام فذلك صيانة منهم لحمى التوحيد كي لا يكون الرسول معبودا كما عبد النصارى عيسى بن مريم ، وان من السمات البارزة في شعر الدعوة تمسك الشعراء بختام القصيدة بالصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم تمسكا لم نجد مثله في بيئات الجزيرة الأخرى التي عنينا بدرسها ·

وغرض الوصف غرض كثير واسع سواء في الشعر العثماني أو ما قبله أو ما بعده في الأقطار العربية كالشام ومصر والعراق ، لما فيها من قصور وعمران ، ومرايا للطبيعة والجمال ، من جنان تمتد امتداد الطرف ، وأنهار عذبة ، ومناخ معتدل ، اذا قورنت بما في الجزيرة من مناخ قاري ، وبساطة في المعيشة والمسكن ، وموام مقفرة ، وصحار مجدبة ، تمتد مع البصر لا ترى فيها الا اكمة أو جبلا ، أو رمالا حمرا ، أو سرابا في قيعان الفها الشعراء حتى لم تعد تثير فيهم ساكنا ، وذلك سبب ضمور الوصف في نجد ، وعدم كثرته في الحجاز والاحساء اللتين وجد فيهما بمقدار ما فيهما من طبيعة ومراء متواضعة ·

والخلاصة أن ثمة سمات استمرت في شعر القرنين امتدادا لشعر القرون الوسطى كشعر المباسطة والاخوانيات ، اضافة الى الأغراض التقليدية ، والرقة التي تمتزج بالضعف ، والصناعه البديعية ، والمعارضات والتضمين ، ودخول الاسلوب العلمي على ساحة الشعر ، والشعر الصوفي · وسمات زادت وتطورت في شعر القرنين كالأوزان المستحدثه ، وختام القصيد بالصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم ·

وسمات قلت وضمرت كشعر المجون ، والمدائح النبوية ، والوصف ·

- ٦ -

أما تأثير الدعوة الاصلاحية على الشعر فقد كان على طائفتين من الشعراء الذين ذادوا عنها ، والشعراء الذين خاصموها ، والطائفة الثانية تأثرت بصورة غير مباشرة يعنينا هنا أن نثبت أثر الدعوة الاصلاحية الوهابية بعامة ، والذي ينطبق بصفة خاصة على شعرائها وليس هذا مجال الحديث المفصل عن سمات الشعر في ظلال الدعوة (١٢) · نكتفي بايرادها موجزة بقصد مقابلتها بتأثير العصر العثماني على الشعر ·

فأولا نجد في شعر الدعوة أغراضا وسمات انعدمت وفقدت وهي : الوصف لغير المعارك ، والمدائح النبوية والمجون ، والأوزان المستحدثة ، والرقة والشعر الصوفي ، وشعر العبث والمفاكهة ومجلس الأنس ·

وثانيا أغراض وسمات ضمرت وقلت وهي المحسنات البديعية ، والغزل ، والهجاء الشخصي ، وشعر المراسلات الاخوانية ، والمعارضة والاقتباس والتضمين والشعر الذاتي والوجداني ·

وثالثا أغراض وسمات كثرت واتسعت وهي الشعر الحربي والحماسي والسياسي ، وشعر المديح ، والجزالة والفخامة · ودخول الأسلوب الديني والعلمي الى ساحة الشعر · واهمال المطالع الطللية والغزلية ·

ورابعا أغراض وسمات أدبية وفكرية جدت على روح عصر الانحطاط : وهي روح القوة والحماسة ، وروح التدين ، والالتزام الأدبي بقضايا الأمة والوطن ، ومواكبة أحداث العصر ، وكثرة شعر النقائض والمهاجاة ، وكثرة شعر النقاش العقيدي والملاحاة ، وكثرة شعر البكاء والرثاء والشكوى وكونه بكاء غيريا أكثر منه ذاتيا ، وطول القصائد ، واختيار البحور الطويلة ، والدعوة الى العودة الى منابع الدين الأصيلة ، والهجوم القوي على مظاهر

التخلف الديني ، والفكري كالاعتقاد بالأولياء والمذاهب الصوفية ، والطواف حول القبور ، والحملة على روح التقليد للقرون السابقة ، والدعوة الى الاجتهاد بما يلائم روح العصر والدعوة الى التحرر من الحكم العثماني واثارة الروح الوطنية والعربية والاسلامية في وجه الاستبداد والفساد العثماني .

وقد سبق شعراء الدعوة الاصلاحية شعراء النهضة المعاصرة الى التخلص من رسوم الديباجة في العصور الوسطى ، الى مجاراة روح العصر .

ولكي تتضح قضية سبق شعراء الدعوة نحاول أن نقارن بين أبرز شعراء النهضة الحديثة (البارودي) ، وأحد شعراء الدعوة (ابن مشرف) .

يعد البارودي رأس المدرسة الحديثة ، والرائد الذي بدأ حركة الاحياء للشعر الحديث ، وخطابه الخطوات الأولى على طريق البعث فتأثر به الرعيل الذي تابع المسيرة من بعده من أمثال أحمد شوقي ، واسماعيل صبري وحافظ ابراهيم وعلى الجارم وغيرهم . وهو بهذه الصورة شاعر فحل مجيد ، من شعراء القمم ، وقد تجلت نقلته الشعر الحديث من قيود عصر الانحطاط في قوة أسلوبه ، ومتانة صياغته وتحرره من الصنعة . وان قال الأغراض القديمة وأفاض فيها ، وبدأ بعض قصائده بالوقوف على الأطلال ، وعارض الشعراء القدامى وأخذ صورهم وأخيلتهم . وقد ولد عام ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م) وتوفى عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) .

أما ابن مشرف فقد توفى عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) واقدم شعر مؤرخ قاله في نكبة الدرعية عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) وبين هذه القصيدة ووفاته اثنتان وخمسون سنة . وقد قال الشعر اذن قبل أن يولد البارودي بأكثر من عشر سنين ، وقد أدرك سن الشيخوخة قبل أن يشتد للبارودي عود أو يظهر له صوت . وقد اهتم بالموضوعات الجادة ، وبرز في شعر السياسة والمديح ، وشعر النقاش الديني ، وهو أقل الشعراء التفاتا الى حلى البديع ، ولم يعن بما عنى به المتأخرون من معارضة أو تشطير أو تعجيز ، ولكنه بدأ بعض قصائده بوصف المراة والأطلال ، وظهرت في شعره النغمة الدينية في شعر الجدل العقيدي .

وبذلك فهو قد سبق البارودي في الحياة والممات ، وصحيح أن البارودي شاعر قمة ، وابن مشرف شاعر سفح ، وهذا شاعر ضعيف وذلك شاعر فحل الا أننا نود أن نعرض بعض شعره الذي يؤكد سبق الشعر في ظلال دعوة ابن عبد الوهاب الى تخليص الشعر من ديباجة عصر الانحطاط ، يقول الشاعر في وصف الأعراب (١٣) :

وكم قد أغاروا في الدروب وكم عثوا   وكم قطعوا سبل الحجيج وخوفوا
فقال أدخلوا في السلم طرا وأسلموا   والا فحرب وعده ليس يخلف
واقسم لا تعطي على ديننا الرشا   وما عندنا الا حسام ومصحف
فمن لم يقومه الكتاب أقامه   حدود الظبا والسمهري المثقف
فهل يستقيم الدين الا بدعوة   الى الله يتلوها سنان ومرهف
.. فلما أبوا الا الخلاف تمردا   رماهم بما يؤذي النفوس ويتلف
بجيش لهام حشوه الخيل والقنا   تهب رياح الموت منه وتعصف

ويقول يعرض بتخاذل الامام فيصل عن دحض شوكة الأعراب ، وقد كنى عن ذلك في أول القصيدة بصورة حبيبته النجدية التي قطعت علاقتها به ، لأنها لا تريد أن تزوره في الأحساء حيث الفتنة قد مدت رواقها ، وقالت له (١٤) :

انا في ربى نجد وانت ببلدة   أحاطت بها الأعداء من كل جانب
يغيرون في أطرافها وسروحها   جهارا ولا يخشون سوطا لضارب
يقولون سيروا ان ظفرتم بنهبة   على رسلكم لا تحذروا درك طالب
وان تسفكوا فيها الدماء فانها   لكم هدر لا تحذروا من معاتب
.. فياليت شعري هل سراة حماتها   نيام فهم ما بين لاه ولاعب
ام الحد منهم كل أم زندهم كبا   أم القوم غروا بالأماني الكواذب
لقد كان تخشى باسهم أسد الشرى   فصارت بهم تعشو صغار الثعالب
... وانى يحوط الملك الا سميدع   يخوض لظى الهيجاء ليس بهائب
ولا دين الا بالجهاد قوامه   ولا أمن الا بعد عدل القواضب
ولا مجد الا بالشجاعة والندى   وجر العوالي فوق مجرى السلاهب

هذه ديباجة ابن مشرف ديباجة شاعر عالم ليس من شعراء القمم ، وليست تقارن البتة بديباجة البارودي :

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة   وربما تاح أمر غير مظنون
فخالفوني وشبوها مكابرة   وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تاتي الأمور على ماليس في خلد   ويخطىء الظن في بعض الأحايين
حتى اذا لم يعد في الأمر منزعة   وأصبح الشر أمرا غير مكنون
اجبت اذ هتفوا باسمي ومن شيمي   صدق الولاء وتحقيق الأظانين

البارودي أجزل وافخم واقوى لكنهما مع ذلك يشتركان في السلامة من آثار عصر الانحطاط وما فيه من تشويه ، ولا ندعي أن محاولة ابن مشرف في اعادة الديباجة كانت تماثل حركة البارودي ، لكننا نؤكد سبق الشاعر الى اعادة الديباجة رغم عدم فحولته (١٥) ، ولذلك لا نستغرب أن يجيء خلفه ابن عثيمين بالديباجة القوية مقاربة لما جاء به البارودي ، ويبدو أنه لم يتأثر بالبارودي أو غيره من شعراء النهضة ، لكنه امتداد لشعراء الدعوة الذين جدوا بالخروج من ربقة الانحطاط ٠

ونصل من ذلك الى أن أثر شعر الانحطاط في الشعر في ظلال الدعوة ضعيف جدا سواء في الشكل والصورة أم الفكرة والخيال أم النهج والديباجة ، أم الموضوعات والمضامين ، بخلاف الأقاليم الأخرى كالحجاز والأحساء والقطيف ، ورغم تأثر شعر القطيف بشعر الانحطاط بقوة ووضوح الا أنه أقل من شعر الأحساء والحجاز انتماء لأدب العصور الوسطى ، بصورة ضئيلة لا تكاد تبين ، ومن سماته التي تخالف سمات الانحطاط : عدم كثرة شعر المباسطات ، وعدم الرقة ، وعدم الايغال والاكثار من المحسنات ، والاكثار من شعر البكاء والمديح الديني ، ومن أسباب هذه المباينة انشداده بالألم المأسوي الشيعي الذي يتجدد في كل مناسبة ٠ وتأثره بالحركات الأدبية بالعراق أكثر من غيره وقد وجد في العراق شعراء مجيدون كعبد الجليل البصري ، وما عرف عن الشيعة من عناية بالأدب خاصة الأدب العقيدي كنهج البلاغة وشروحاته وأن بيئتهم ظلت من أقوى البيئات عناية باللغة العربية والبيان ٠

ولكي نعرف أثر النهضة الحديثة في الشعر فان من المناسب ذكر أهم خطوطها ٠

فقد انتهى العصر العثماني بحملة نابليون على مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) أو بحكم محمد علي لمصر (١٨٠٥م) (حوالي ١٢٢٠هـ) وهذه

البداية سياسية أكثر منها أدبية ، شأنها شأن كل تحديدات عصور الأدب لا تحدث نقلة وطفرة من أول وهلة ٠

وقد مر الأدب بعدها بأدوار نذكر منها ما يتصل بهذا الموضوع ٠

الدور الأول من حكم محمد علي الى ولاية اسماعيل (١٨٠٥م – ١٨٦٣م) حوالي ١٢٢٠هـ – ١٢٨٠هـ ٠ ورغم أن الشعر دائما أسبق الفنون الى الظهور فان هذا الدور ظل امتدادا أمينا للعصر العثماني ، لأن عوامل المدنية لم تكن قد تمكنت (١٦) ومن شعراء هذا الدور أحمد البربير المتوفى ١٢٢٦هـ (١٨١١م) واسماعيل الخشاب المتوفى ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) وأمين الجندي المتوفى ١٢٥٧هـ (١٨٤١م) وشهاب الدين المصري المتوفى ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م) وقد قالوا الشعر في الأغراض التقليدية ، والمراسلات ، والبديعات ، والمواليا والموشحات والأزجال (١٧) كما فعل الذين من قبلهم.

والدور الثاني من ولاية اسماعيل الى الاحتلال الانجليزي لمصر (١٨٦٣ – ١٨٨٢م) حوالي ١٢٨٠هـ – ١٣٠٠هـ وفي هذه الحقبة أخذ بعض الشعراء يتخلصون من القيود التي تشين القصيدة سواء في المطلع ، أو الأسلوب ، وتخلصوا من المحسنات ، وبدأوا المديح والرثاء دون مقدمات ، لكن الكثرة الغالبة منهم ظلت تقلد أساليب القدماء (١٨) ٠

ومن شعراء هذه الفترة عبد الغفار الأخرس العراقي المتوفى ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) وعلي أبو النصر المنفلوطي المتوفى ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م) وقد أكثر الشاعران من المديح (١٩) ٠ وفرنسيس مراش الحلبي المتوفى ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) يعتبر من أقدم النازعين الى روح العصر ، وقد نبهه الى ذلك اختلاطه بالافرنج (٢٠) ٠

لكن الجدير بالذكر أن هذا الشاعر لم يستطع أن يؤثر تأثيرا واسعا وأن سجل بداية الاقتباس من الغرب ، لنفرة الأذواق من التأثير ، ولأن الشاعر بانتمائه المسيحي أبعد عن الدخول في الأذهان ، ولأنه لم يكن من النوابغ ٠

ولذلك نجزم بالقول بأن شعر الجزيرة خلال الفترة التي عاصرت الدور الثاني لم يتأثر بأي أثر ٠

ويبتدىء الدور الثالث ببداية الاحتلال الانجليزي عام (١٨٨٢م) حوالي ١٣٠٠هـ ٠

وشعراء هذا الدور هم شعراء الطليعة في الشعر الحديث الذين تمكنوا من التجديد ، ومواكبة روح العصر ومنهم خليل اليازجي المتوفى ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) وعلي الليثي المتوفى ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) ونجيب الحدود المتوفى ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وعائشة التيمورية المتوفاة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) والبارودي المتوفى ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) (٢١) .

وهذه الطبقة قد عاصرت أواخر الطبقة الثانية من شعراء القرنين ، كما عاصرت أوائل الطبقة الثالثة .

وقد عرضنا من قبل لتأثر أحمد الحفظي الثاني المتوفى ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وهو من شعراء الطبقة الثانية ، هذا التأثر الذي برز بالمناداة بوحدة الأمة ، وابعاد نوازع التفرقة ، ووضحت في أسلوبه العبارات والتراكيب الحديثة كالقوى ، واتحاد ، والأرض واحدة يقول (٢٢) :

ما كنت يوما اجوب الأرض في سفري   لغير مجد واني غير ممتهن
قد طفت في الأرض اعواما وخضت لما   فيها بحورا على البابور والسفن
سبعون شهرا بارض الروم كاملة   ومثلها من ربى نجد الى عدن
واسمع الناس نصحا قبل قارعة   تهد ركن القوى من فعلنا الخشن
عسى اتحاد لنا فالأرض واحدة   والدين محترم عن فعل كل دني

وله شعر يأتي فيه هذا التأثر كما في عبارة « قدم العرض » (٢٣) .

وقدم العرض لكن ما أستجيب له   وحقه في ملوك الأرض قد وجبا

وقد اتضح تأثر الشعراء اللاحقين لهذه الطبقة والذين عاشوا الفترة ما بين (١٣٠٠هـ ـ ١٣٥٠هـ) بشكل اكبر كما في شعر عبد العزيز ابن عبد اللطيف المبارك السياسي ، والعمري ، ويمكن أن نجمل ذلك في ما يلي :

اهمال المقدمة الغزلية كما وضح من شعر صحيفة القبلة ، العودة الى الديباجة العباسية كما في مديح العمري ، التجاوب مع أحداث العصر كما في شعر الأسكوبي ، وعبد العزيز المبارك ، والتأثر بأفكار حديثة كالدعوة الى الوحدة الاسلامية ، أو المزج بينها وبين الوحدة العربية كما نلمح في شعر الحفظي وكما في شعر القبلة ، والدعوة الى الأخذ بالعلم والصناعة ،

والاقتباس من الغرب والهجوم على المتزمتين الذين يرفضون أسلوب التعليم الجديد •

والشعر السياسي الذي ألقي كنصائح للعثمانيين ، بأن لا يبعدوا العرب ، ويهملوا الدين والشعر السياسي الذي هاجم الاستعمار •

لكن هذا التأثر لم يكن كبيرا ، ولا سائدا فقد ظل أكثر الشعراء على طريقتهم الأولى سواء منهم الشعراء الذين انتموا للعصر العثماني ، وتأثروا بعصر الانحطاط ، أم الشعراء الذين حاولوا النهوض بأغراض الشعر دون أن يتأثروا بالنهضة الحديثة كشعراء الدعوة الاصلاحية •

د• عبد الله الحامد

الهوامش

١ ـ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : ١٢١/٣ •
٢ ـ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : ٢٩٠/٣ •
٣ ـ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : ٢٩١/٣ •
٤ ـ راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : ٢٩٣/٣ ـ ٣٠٣ •
٥ ـ الموسوعة ٤/١ ـ ٩ •
٦ ـ شعراء هجر ٤٥ •
٧ ـ شعراء هجر : ١٣٠ •
٨ ـ تاريخ الأحساء : ١٣٣/٢ •
٩ ـ مختارات آل عبد القادر : ١٧٠ وتاريخ الأحساء : ٦٩/٢ •
١٠ ـ الموسوعة : ٣/١ ـ ٤ •
١١ ـ الديوان : ١١٥ •
١٢ ـ أنظر هامش كتاب « الشعر في ظلال حركة الامام محمد بن عبد الوهاب » لكاتب السطور •
١٣ ـ ديوانه : ٨٣ •
١٤ ـ التذكرة : لابراهيم بن عبيد : ١٠٩/١ ـ ١١٠ •
١٥ ـ يركز كثير من الباحثين في رصد ظواهر الشعر على شعراء القمم ، وذلك يغفل مايرسم الشعراء الصغار من صور واتجاهات قد لا توجد في شعر القمم •
١٦ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : ١٦٥/٢ •
١٧ ـ راجع تاريخ آداب اللغة العربية : ٢٠٩/٤ ـ ٢١٢ •
١٨ ـ أنظر تاريخ آداب اللغة العربية : ٢٠٥/٤ •
١٩ ـ أنظر تاريخ آداب اللغة العربية ٢١٦/٤ ـ ٢١٧ •
٢٠ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : ١١٥/٤ •
٢١ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : ٢١٨/٤ ـ ٢٢٤ •
٢٢ ـ نفحات من عسير : ١٨٦ ودني تسهيل لكلمة دنيء •
٢٣ ـ نفحات من عسير : ١٥٠ •